

المواويل الشعبية وحوار الشخصيات

في رواية "راس المحنة" للكاتب عز الدين جلاوجي



رواية "راس المحنة" للكاتب عز الدين جلاوجي من الروايات الجديدة التي تتناول محنة المجتمع الجزائري في أعوام التسعينيات ويركز الكاتب فيها على قضيتين: تتمثل الأولى في الهجرة من الريف إلى المدينة، والثانية في تردي الوضع الأمني وانتشار ظاهرة العنف، وقد عالج الكاتب هاتين القضيتين من خلال إبراز خصوصيات الزمان والمكان وصراع الشخصيات ووظف الأغنية الشعبية، وتفاءل في آخر الرواية بزوال المحنة.

د. رزاق محمود الحكيم
قسم الأدب جامعة
سطيف

الرواية الجزائرية إنجازات معتبرة منذ عقد
حققت السبعينيات من القرن الماضي، وارتقى النص

الأدبي الروائي على حساب النص الأدبي الشعري، سواء على مستوى التأليف والنشر، أو المقروئية والنقد والإبداع، ويعود ذلك في تقديري إلى جملة أسباب أهمها: معمارية الرواية الفني، وخصوصيات الخطاب الروائي مثل عنصر التشويق والقص والسرد والحكي، وعنصر البطولة والمفاجأة إلى جانب اقتراب الرواية من الموروث الحكائي الذي يرتبط حميميا بإحساس القارئ، فيرى فيه نافذة يطل منها على ماضيه، وحيننا ما فتى يشده بقوة إلى تراث الآباء والأجداد.

كما أيقن جيل الثمانينيات والتسعينيات من الكتاب الشباب أن آفاق القصة والرواية أكثر رحابة من آفاق الشعر، فاندفع يمارس الكتابة القصصية متمسكا تجارب الكتاب العرب، وفي الوقت نفسه فنون الأدب الأجنبي، سواء ما ترجم منها إلى العربية، أو ما بقي مكتوبا باللغة الأصلية.

résumé

Le Roman «Rass elmehhne» de l'écrivain Azzedine Djelaoudji et l'un des nouveaux roman qui traite les problèmes tropique de la société Algérienne dans les années quatre vingt dix.

Ici l'écrivain insiste sur deux sujets. Le premier illustre l'émigration vers les grandes villes et le deuxième la diminution de la sécurité civile et l'apparition de l'agressivité.

L'auteur du livre traite ces deux sujets en insistant sur la particularité du temps et du lieu, le conflit entre les différents personnages ainsi que l'application de la chanson populaire.

à la fin du Roman par un grand optimisme, l'auteur prétend que tout est pour le mieux.

وقد واجهت كاتب القصة أو الرواية عدة مشكلات خصوصا على مستوى البنية اللغوية للنص، وتداخل الأزمنة، وتداعي الأحداث، والمواقف والرؤى، وصراع الشخصيات، فلجأ البعض إلى الاستعانة بخصوصيات المكان، وتوظيف الخطاب العامي، اعتقادا منه أن ذلك سيزيد من أواصر القربى بين الشخصيات من جهة، وبينهم وبين المتلقي من جهة ثانية، ولجأ البعض إلى تطويع اللغة لمقتضيات الحوار والسرد، ومراعاة ظروف الحال، وصفات الشخصية المحورية في النص الروائي، فاستخدم اللغة العادية محتفظا في الوقت نفسه بقدر من الفصاحة وضوابط اللغة وسلامة العبارة، مستعينا بين الحين والآخر بعناصر التراث الشعبي وتوظيفها داخل النص، كالمثل والأسطورة والأغنية الشعبية، والموال والحكمة والوعظ الديني. والرواية التي سأتعامل معها تنتسب إلى هذا النمط الأخير من الروايات الجزائرية الجديدة التي تحاول التوفيق بين مستلزمات الفن الروائي، ومقتضى حال المكان، وصفات الشخصية، وحركة البطل الذي يتموضع أولا داخل مجتمع القرية، ثم تضطره ظروف الحياة الاجتماعية إلى الهجرة نحو مجتمع المدينة، وفيها تبرز معاناته وترداد مشاكله، فيستبد به الحنين إلى الريف والقرية، غير أنه يعدل عن ذلك. إن صعوبة الحياة وهاجس الخوف واللامن أصبح الآن موجودا في كل مكان، وتغير الناس، وتبدلت أشياء كثيرة.

تتألف رواية "راس المحنه" من سبعة محاور، تبدأ بالشرفة الأولى، وتنتهي بالشرفة الأخيرة، وبين الشرفتين نطل على مشاهد متنوعة: الخروج إلى التابوت، البحث عن العش، قرصنة الأحلام، الحب وعفونة الرصاص، وأخيرا الخروج من التابوت. وخلال هذه الشرفات والمساحات والأماكن تتجول الشخصيات، وتتعاقد الأحداث، وتتعدد المواقف، غير أن عملية القص والحوار تتوحد في لغتها وخطابها، ورؤيتها للأشياء، فمنذ الشرفة الأولى تخرج "الجازية" وهي شخصية فاعلة في أحداث الرواية لتضيء المكان وتثير الإعجاب بما تمتلكه من إغراءات سحرية وأسطورية: «وحدك يا جازية، وحدك تذرعين الأزقة المتربة الضيقة. انطلقني الآن كالمهرة الجموحة المتمردة»⁽¹⁾.

إن قضية الهجرة من الريف النقي الهادئ الجميل إلى المدينة الصاخبة ذات الدروب الكثيرة والشعاب الملتوية هي الهاجس الذي حاول عز الدين جلاوجي أن يجعل منه

الحدث والحديث، فمنذ الوهلة الأولى كان "صالح الرصاصة" مترددا في الرحيل من قريته الوادعة إلى المدينة التي سيتحول فيها بقدرة قادر إلى "صالح الخيط" وشتان بين قوة الرصاصة وصلابتها، ووهن الخيط وسهولة انقطاعه، كان يجهل طبيعة الحياة في المدينة، وصعوبة الانسجام مع تقاليدھا المتبدلة والمتغيرة والزائفة، ولطالما حاول "صالح المجاهد" أن يقوم اعوجاج السلوك وفساد الأخلاق دون جدوى، وأخيرا كان مصيره الفصل عن العمل، فراوده الحنين إلى القرية، والناس الطيبين، والجازية "يا صالح هؤلاء فسّدوا وأفسدوا... الهرب يا صالح... الهرب"⁽²⁾.

غير أن كاتب الرواية لا يريد لصالح أن يعود الآن إلى القرية، بل يصرّ على بقائه في المدينة، وتتوالى الأحداث، وتتعدّد الأماكن: في حارة الحفرة، في السوق، في الحّمّام، في طرقات المدينة وساحاتها العامة، وتشارك في نسيج الأحداث شخصيات أخرى: عبد الرحيم، عبلة الحلوة، إبراهيم جحا، الأم علجية، العجوز عكة، منير، ذياب، وغيرهم، ويتعقب عز الدين جلاوجي حركات الشخصية الرئيسية في الرواية "عمي صالح" وينشغل به دون أن يعير اهتماما "لوصف المكان، أو الوصف الخارجي للشخص و إنما تظهر الشخصية فجأة مكتملة، وكأن القارئ يعلم مسبقا صفاتها والمهام الموكلة إليها:

" مالي أراك ساكنا يا عبد الرحيم؟ هذا الشعب يستحق الهراوة.. أنت تموت من أجلهم، وهم ينمّون ثرواتهم"⁽³⁾.

ويأتي الآن الهاجس الثاني في الرواية، فبعد مشكلة الهجرة من الريف إلى المدينة، وهو مشكل مطروح في المجتمع الجزائري منذ أعوام السبعينيات يأتي مشكل تردّي الوضع الأمني في مطلع التسعينيات، ومشكل السرقة والسطو والاعتقالات، ليضيف متاعب أخرى إلى المواطن، ولينسحب بعد ذلك على كل الأماكن: في المدينة، في الريف، في السهل والجبل، في السواحل والغابات، في الحواجز المزيفة، وفي الطرقات العامة... "فتحت جريدة الشروق اليومي.. أول عنوان صادفني هو مجزرة في المدية، اغتيال رئيس محكمة باتنة... قوات الأمن تقضي على عشرين إرهابيا بجبال بابر"⁽⁴⁾ ومن ثم كان هذا الهاجس المؤرق هو الرباط الذي وحد الأحداث، وكان "راس الحنه"، أما الجازية فكانت الشاهدة والراوية، وصورة الوطن الجريح، والهجرة

والرحيل والناس، وصحب السيارات، وضجيج المارة، ونداءات الأحرار والغيورين
تتردد أصداءها في القلوب والعقول والضمائر:

هذا وطنك والآجيت برآني
يا راس المحنه لله كلمني
حُرْ أنتَ والآ مملوك حظائي⁽⁵⁾

من هذه الأغنية الشعبية، ومن هذا الموال ندخل مع عز الدين جلاوجي فضاءات
رواية "راس المحنه"، محنة الوطن الجريح الذي ظل يترف دماً طيلة عقد من الزمن،
وإن كان هذا الموال الشعبي الشائع بالجزائر قد ختم به الكاتب أحداث الرواية، لكنه
جاء تتويجا لمسارات وعرة، ودروب موحشة، وأعوام من الخوف والفرع والانتظار،
إن ظاهرة المواويل الشعبية داخل نصوص رواية "راس المحنه" لم تكن ظاهرة عفوية،
ولا تجميلية، ولا تكميلية للأحداث، وتنتم للمشاهد، بل هي جزء أساسي من معمار
الرواية الفني، فمنذ الصفحات الأولى يستنطق الكاتب شخوص روايته بهذه الأهازيج
الشعبية، التي تضيء على الأحداث امتدادات تتجاوز حدود المكان والزمان:

خليونا نطق في العمر مرّة.
بالله عليكم حياتنا صارت مُرّة.
أعمارنا راحت اخساره.
وانكسرت كي الجرّة⁽⁶⁾.

وإذا كانت لغة الموال الشعبي تستعين بالخطاب العادي، وتتهج أساليب الإنشاد
والغناء والترديد، فإن لغة الخطاب الثري ليست بعيدة عنها، إنها لغة قصيرة وسريعة،
سهلة، تتميز بالتكرار والترادف والإيجاز: "أنا خوّاف أخاف المدينة... المدينة عاهرة
وفاجرة ستفسدني.. تبذلني.. تغيرني.. تبلعني.. المدينة يا ناس قدرة وسخة ستوسخني"⁽⁷⁾.
وإذن فإن المزوجة في حوار الشخصيات داخل رواية "راس المحنه" بين شعرية
الخطاب الأدبي ونثرته هو منحى "جديد انتهجته بعض الروايات العربية المعاصرة
قصد الاستحواذ على لغة الخطاب الأدبي العام، فهي تسهل مهمة الكاتب من جهة،
وتعيّنه على الوصف الداخلي للشخوص والأحداث، ومن جهة أخرى ترضي ذوق
القارئ، وتضع أمامه فسيفساء لغوية متنوعاً، وعن هذه القضية يتحدث الراوي
الجزائري رشيد بوجدرّة قائلاً: "إن الرواية المعاصرة أصبحت الموضّح الممتاز بالنسبة

للأدب بصفة عامة، لأن لها القدرة على هيكلة تعقيد الواقع من خلال التقلبات اللغوية الجذرية، والانفجارات البنائية، والثورات المنهجية كذلك، خاصة وأن الرواية الحديثة والمحدثه استوعبت لصالحها الشعر والنثر، وكل الإنجازات التي حققتها العلوم الإنسانية واللسانية، فأصبحت بفضل هذا الاستقطاب مجالاً فسيحاً للتجارب الجزئية، ومخبراً عظيماً لتحميمض الواقع وتحميمض الحياة⁽⁸⁾.

وإذا كانت شخصية المجاهد أو "صالح الرصاصة" هي الشخصية المحورية في الرواية، فإن الشخصيات الأخرى جعلها الكاتب مكتملة لها، تتعايش وتتجاوز دون أن تتصارع وتنكفي، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة المجتمعات المحافظة التي تربط بروابط عاطفية واجتماعية وثيقة، ذلك ما يفسر لنا استعانة الكاتب: ببعض الأمثال الشعبية خلال استنطاقه للشخصيات على طول مساحة الرواية، نقرأ في صفحة 58: "الضيق في القلوب يا وليدي"، وفي صفحة 69: "الدنيا فانية والدجاج يموت"، وفي الصفحة: 99: "كل عطلة فيها خير".

ولم تكن هذه الأمثال والمواقف الشعبية من الحياة بعيدة عن واقع المواويل الشعبية داخل نصوص الرواية، بل إن الحسّ الإنساني والمواقف الوعظية والعاطفية تكاد توحد بين أصناف الخطاب الروائي وحوار الشخصيات، وهي صورة للواقع المعيش، ولل فرد العربي وذهنيته، وعفويته ونقاء سريره:

رائي خلتيها لك أمانه

أنتلى فيها

ما تغبنهاش

هي حبيتي آنايا

لكن ربي ما كتبهاش⁽⁹⁾

إن هيمنة الزمن الماضي على أحداث الرواية الجزائرية لازال الهاجس الذي يورق الجيل السابق، كما أن صراع الأجيال داخل النص الروائي ظاهرة انتقائية وجمالية في الوقت نفسه تكون قد شكلت مرجعية أدبية لدى جيل الكتاب الشباب، ومادة للكتابة الروائية، بل إن تداخل الأزمنة وسيلة يستعان بها لمعالجة واقع متردّي يوضع أمام القارئ كمشهد نقي صافي لا تشويه شائبة، قال الكاتب " كانت تحدثني عن

الجميع. عن بطولاتهم وتضحياتهم إلا عن نفسها. كانت تقول لي وهي تتفقد كل ركن في البيت:

الشهداء يقتلون ولكن لا يموتون

عيوننا قاصرة عن رؤيتهم⁽¹⁰⁾

ولكن هل استطاعت هذه الكلمات الدافئة أن تصلح النفوس والعقول والضمائر، فالروائي إنما يرغب في إثارة أحاسيس القارئ، وتحريك العواطف الراكدة عن طريق توظيف الموروث التاريخي والديني، وهذا ما فعله عز الدين جلاوجي في مواضيع مختلفة من رواية "راس المحنة"، إن محنتنا حقا حين لا ننتفع بالدروس، ولا نعتبر بالأحداث ولا نتخذ من المواقف البطولية لأجدادنا زادا نتزود به في مواجهة الحاضر وتحديات المستقبل، فعملية القص إذا كما يقول عبد الحميد بورايو: "في اعتمادها على التعاقب خاضعة في ذلك للضرورة اللغوية، وللمنطق الزمني الفردي ذي الطبيعة الكمية تسمح بهيمنة الزمن الماضي الذي يتلعب كل لحظة راهنة بمجرد إدراك الأحاسيس والانفعالات المثارة فيها"⁽¹¹⁾.

ومرة أخرى يعود عز الدين جلاوجي إلى مداعبة أحاسيس القارئ حين يضع أمامه مشهدا للطفولة البريئة، وهي تعانق السهول الفسيحة والجبال المكسوة بالخضرة وضحكات الأطفال تتردد صدها في أرجاء المكان، وترتفع أصواتهم بالغناء:

أربيع ربعاني

كل عام تلقاني

أنا وخياني

في الجبل الفوقاني⁽¹²⁾

وإذا فإن عز الدين جلاوجي لم يشأ إلا أن يتفاعل بزوال المحنة، وعودة الربيع، ذلك الربيع الذي كان يعود غريبا كل عام، لكنه الآن ليس كذلك فالكل في انتظاره، بالحلوى والبرود والابتسامات.

إحالات

- 1 - عز الدين جلاوجي - راس المحنة - ص: 12.
- 2 - المصدر السابق ص: 47.
- 3 - نفسه، ص: 128.
- 4 - نفسه، ص: 179.
- 5 - نفسه، ص: 199.
- 6 - نفسه، ص: 54.
- 7 - نفسه، ص: 23.
- 8 - رشيد بوجدره - واقع الرواية في القرن العشرين - مجلة الرؤية، ع1، ص: 1988.
- 9 - عز الدين جلاوجي - راس المحنة - ص: 223.
- 10 - المصدر السابق، ص: 99.
- 11 - الدكتور عبد الحميد بورايو - دلالة الزمن في رواية الجازية والدرأيش لعبد الحميد بن هدوقة - ص: 15،
الملتقى الوطني الثاني عبد الحميد بن هدوقة - برج بوغريريج 1992.
- 12 - عز الدين جلاوجي - راس المحنة - ص: 106.